الأنموذج العاملي كإجراء في رواية راس المحنة 1+1=0 لعز الدين جلاوجي

الأستاذ الدكتور: عبد الرحمن تبرماسين
قسم الآداب واللغة العربية
كلية الآداب واللغات
جامعة محمد خيضر- بسكرة
الأستاذ: سامي الوافي

منذ القراءة الأولى لهذه الرواية تبدو علاقة(صالح الرصاصة) كفاعل رئيسي وذات مهيمنة بالمدينة فصلية لاعتبارات مسبقة بنى عليها حياته وفرضها على عائلته، خاصة بعد أن اقترح عليه صديقيه(السعيد والربيع) ضرورة الانتقال إلى المدينة والعيش فيها ولتحقيقهم هذه الرغبة يجب عليهم خلق علاقة وصلية بين ذات الرغبة(صالح الرصاصة) والموضوع المركزي(المدينة) وذلك بتوفيرهم أهلية مزدوجة تشمل فعل إقناعي هدفه تحقيق رغبتين متقابلتين هما أولا: الانفصال عن الريف الذي يحتل مكانة كبيرة في قلب(صالح الرصاصة)، وثانيا خلق علاقة اتصال مع المدينة قصد مساعدته في الظفر بفرصة حياة أفضل، وهذا جلي في الملفوظ السردي الآتي:" الناس الآن يا(صالح) تعيش على المستقبل... الناس طلَّقوا الماضي... هكذا يا خُيَّ(صالح) ستضيع وتضيع عائلتك وأولادك... لابد أن ترحل إلى المدينة... من حقك يا(صالح) أن تعيش سعيدا"[1]، إذ نلاحظ من هذا الملفوظ تحول(صالح الرصاصة) بالنسبة لصديقيه (الربيع) و(السعيد) ذات قيمة في سعيهم الجاهد لتحقيق موضوعهم بإخراجه من الريف، ليكون الوضع البدئي كالآتي:

- صالح الرصاصة **U** المدينة **n** الريف.

فالريف بالنسبة لـ(صالح الرصاصة) يتعدى كونه مكانا باعتباره يمثل مجموعة من القيم أرسى حياته لها لنجده يقول:" أنا هكذا سعيد وهانئ في قريتي مع زوجتي وأولادي، ما بقي لي غير أن أموت هانئا إن شاء الله"[2]، لكن حسب منظور صديقيه

الأمر مختلف لأن سبب الزيارة هو هذا المكان المنغلق المعزول ليكون عليهم بذل ما بوسعهم مقترحين على(صالح الرصاصة) الانتقال إلى المدينة لقـولهم" يا(صالح) الناس كلهم تغيروا... الناس كلهم تبدلوا... الزمان الذي فات ولَّى إلى غير رجعة... والأفكار التي كانت زمن الثورة زالت... وأنت أنت... حالتك تُفجع... لم تتغير ولم تتبدل..."[3]، فهذا الملفوظ جاء متضمنا لعدة محفزات الغرض منها تدعيم الموضوع تدريجيا عن طريق فعل إقناعي كون(صالح الرصاصة) غير متقبل لفكرة الرحيل عن الريف والانفصال عنه في البداية، ليبقى الموضوع ثابتا من حيث القيمة ويكون الوضع كالآتي:

- صالح الرصاصة **n** ذ **U** المدينة.

فمحاولة كل من(الربيع) و(السعيد) إدخال(صالح الرصاصة) في برنامجهما الاستعمالي جاء تمهيدا لاتصاله بالموضوع المركزي(المدينة)، حيث منحاه مساندة قاعدية أقرَّ بها في قوله"... كنت أدرك أنهما ما أرادا لي إلاَّ الخير... أشفقا عليَّ وعلى حالي وفقري"[4].

وهنا تتضح ذات القيمة(صالح الرصاصة) متوازية مع الموضوع المركزي (المدينة)، ليبدأ سهم الرغبة في الاتجاه نحو التحقق بعد إقناعه ثم اقتناعه بأهمية التنقل إلى المدينة، ليوافق في الأخير قائلا"... كانا يقلبان فيَّ بصريهما وفيهما إلحاح بقبول الفكرة... ورغم كوني كنت أخاف المدينة... أردت أن أقول لا للمدينة... فقلت نعم... قلتها خافتة باهتة"[5]، لتكون نتيجة الوضع كالآتي:

- صالح الرصاصة **n** المدينة.

ليتجسد القانون المنظم للسرد هنا في ثلاثة مراحل هي:

- **الفرضية:** رغبة كل من(السعيد) و(الربيع) في إخراج(صالح الرصاصة) وعائلته من الريف والانتقال بهم إلى المدينة.
- **التحيين:** استعمال المنطق الإقناعي في إنجاح الموضوع.
- **الغائية:** النجاح في إقناع(صالح الرصاصة) بضرورة الرحيل إلى المدينة.

فاستعمال كل من(الربيع) و(السعيد) للمنطق الإقناعي كأداة ضرورية مكنهما من تحيين رغبتهم وتحقيق موضوع القيمة.

كما نلاحظ حصول تدهور كبير لحال(صالح الرصاصة) بعد رحيله إلى المدينة

واستقراره بها نتيجة قوى هي عبارة عن عوامل ضديدة ممثلة في مدير المشفى ورئيس البلدية(أمحمد أملمد)، لتكون نتيجة الفعل التحييني إيجابية بالنسبة لصديقي(صالح الرصاصة):(السعيد) و(الربيع)، لأنهما نجحا في تحقيق موضوع الرغبة بنجاح، أما بالنسبة لــ(صالح الرصاصة) فنتيجة هذا التحيين كانت سلبية بفعل عوامل ضديدة وقفت له بالمرصاد، لتنقلب حياته من حالة التوازن(قبل/ الريف) إلى حالة الاضطــراب(بعد/ المدينة)، وهذا ناتج طبيعي عن الإخفاق الكبير والصدام الذي وقع فيه بداية مع مدير المشفى الذي يمثل السلطة الإدارية الفاسدة بإنشائه برنامج سردي ضديد عمل من خلاله إلى إفشال أي رغبة أو عمل يقوم به(صالح الرصاصة)، خاصة بعد ملاحظة تفانيه في عمله وهو ما يمثل بالنسبة إليه خطر يهدده لتتجلى المعارضة في قوله" سبحان الله حارس يراقب سيده... يراقب مسؤوله... اسمع يا(صالح) أنت مهمتك هنا حارس ولست في المستوى كي تعلمني درسا في الوطنية... أنت إنسان مشوش فوضوي ومخرب... وفي ذلك خيانة لمبادئ شهداء الثورة..."[6].

ليؤدي هذا الموقف البدئي إلى تصعيد التأزم، بسبب التدهور التدريجي الحاصل بين(صالح الرصاصة) ومديره الذي سعى إلى عرقلة مسعى الذات بعقده مجلس تأديبي، وذلك في قوله" أنت دائما مشوش لا شيء يرضيك... والناس كلهم مخطئون في رأيك... الجلسة مرفوعة وأنت لابد أن تحضر أمام المجلس التأديبي بتهم عديدة"[7]، ليقوم الفاعل المضاد(مدير المشفى) بتحويل الموقف تحويلا جذريا أولا بطرد(صالح الرصاصة) من العمل وتأليب المسؤولين ضده على أنه مجنون عديم الأهلية ولا يصلح للعمل، وثانيا بطرده من محل إقامته في إطار الوظيفة، كل هذه التهم أُلصقت بــ(صالح الرصاصة) ونال جزاءه لا لشيء سوى أنه تفانى في العمل، ليمهد له هذا التصرف اتصاله بسكان حارة الحفرة.

لتبين المقطوعة السردية أعلاه ظهور عامل مضاد للذات ولمشروعها، لعلمه المسبق بعنصر الرغبة لدى(صالح الرصاصة)، ولعلاقته المتوترة معه ليخلق بذلك موضوعا ضديدا حاول بكل جهده تحقيقه بخلق لحظات صدامية نتيجة التعارض في الرغبات والمساعي، لأن(صالح الرصاصة) إنسان وطني لقوله" خدمت خمسة أشهر أجيء في الصباح قبل الوقت بنصف ساعة... أساعد في التنظيف وسقي الأشجار... وربما زيارة المرضى... وأزيد العشية نصف ساعــة أخرى أقوم بنفس

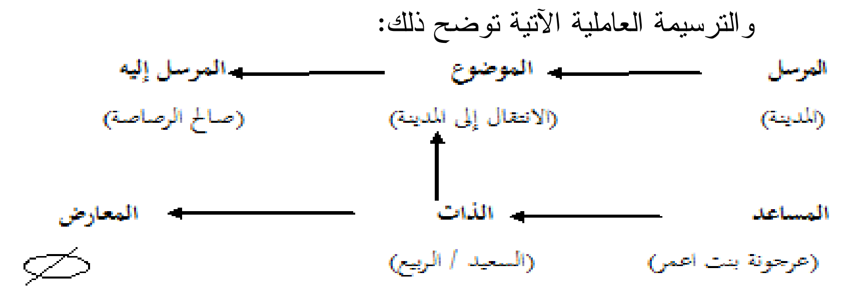
المهمة..."[8]، في حين نجد مدير المشفى شخصية انتهازية، لقول(صالح الرصاصة) عنه مستهزئا" مديرنا إنسان وطني ضرب الرقم القياسي في احترام وقت عمله... يدخل لمكتبه بعد العاشرة يتصفح الجرائد التي تشترى على حساب المشفى... يوقع الوثائق يطلع على المراسلات... يرشف القهوة... عند الحادية عشرة يخرج ولا يعود حتى الغد..."[9].

ليحصل التدهور ممهدا بذلك الطريق للانفصال عن المشفى، وليحدث الاتصال مع حارة الحفرة وحدوث فعل التحويل وعملية الانتقال من حالة لأخرى(من اتصال إلى انفصال والعكس) يستلزم اللجوء إلى فعل التحويل وعملية الانطلاق من الحالة الأولى إلى الحالة الثانية لا يتم عن طريق الصدفة بحيث" يجب التعامل مع هذا الانتقال كعنصر مبرمج بشكل سابق داخل خطاطة سردية"[10]، لتتواتر هذه المقاطع السردية محدثة وضعا انفصاليا تارة واتصاليا تارة أخرى، الوضع الانفصالي حدث بعد طرده من العمل وبيته، لقوله" وفصلوني عن العمل... طرقت كل الأبواب... اشتكيت للمسؤولين... كتبت للجهات الرسمية والغير رسمية... كلهم اتفقوا على أنني مجنون ولا أصلح للخدمة..."[11]، في حين تحقق الوضع الاتصالي بعد طرده من بيته الذي كان يشغله في إطار الوظيفة والتحاقه بحارة الحفرة وإقامته هناك لقول(منير) جاره" مع إشراقة شمس الغد انتقل(عمي صالح) مع أسرته إلى حارة الحفرة بعد أن لفظته المدينة على أطرافها الفقيرة... وغدت لي عائلة أخرى"[12].

لتتواتر هذه المقاطع بصيغ مختلفة للتأكيد على ما آل إليه البرنامج السردي الذي كانت بدايته بوضعية فصلية(الرحيل من الريف إلى المدينة)، ونهايته كذلك بوضعية فصلية =(رجوع(صالح الرصاصة) وحده إلى الريف)، وهذا معناه الإخفاق الكبير الذي تعرضت له ذات(صالح الرصاصة) في المدينة بسبب تكالب عناصر معارضة مختلفة أدت إلى حصول إساءة حالت دون بلوغ مرحلة التوازن التي تأسس عليها البرنامج السردي الخاصة بـــ(صالح الرصاصة).

لنجـــد أن التحويلات الممكنة التي قام بها كل من(السعيد) و(الربيع) لإنجاح الفرضية عن طريق تحيينها باستعمال الفعل الإقناعي قد انتهت بالنسبة لهم إلى النجاح، بينما بالنسبة لـــ(صالح الرصاصة) انتهت إلى الفشل، لتتغير الحالة البدئية من الاستقرار إلى الاضطراب.

والترسيمة العاملية الآتية توضح ذلك:



أ– ثنائية المرسل– المرسل إليه:

يعتبر الريف الدافع الأساسي الذي جعل كل من(الربيع) و(السعيد) صديقي (صالح الرصاصة) يرغبان في جعل صديقه وعائلته ينفصلان عنه وينتقلا إلى المدينة، كما نجد خانة المرسل إليه(التلقي) متألفة من ممثل واحد يعد المستفيد حسب صديقيه من الحركة المكانية المزدوجة(فصل/ وصل) وهو(صالح الرصاصة)، لتؤدي في هذه الحالة وظيفة نحوية بالنسبة لشخصية(صالح الرصاصة) التي تحتل بدورها خانتين هما: الذات الموجهة للرغبة، المرسل إليه، أما ثنائية: الريف/ المدينة فقد قدمتا هنا بطريقتين مختلفتين:

– الريف: رمز النقاء والبساطة(عامل جماعي مجرد).
– المدينة: رمز للاضطراب والتعقيد(عامل جماعي مشخص).

لتقوم هذه الثنائية (المرسل/ المرسل إليه) بتفعيل الثنائيات العاملية الأخرى وتوجيهها.

ب– ثنائية الذات– الموضوع:

يوجد ممثلان هنا يؤديان الدور العاملي على مستوى خانة الذات هما:(السعيد) و(الربيع) اللذين يشتركان معا في تحقيق موضوع الرغبة(الاتصال بالمدينة والانفصال عن الريف) وذلك باستعمالهم لإشارات دالة على أن المدينة أحسن وأرحم من الريف، لقول(الربيع)" نعم من حقك أن تعيش... هناك يا(صالح) في المدينة الماء والكهرباء والغاز والجامعات والمشافي والطرق المعبدة... من حق الأولاد أن يدرسوا... من حقهم أن يتحضَّروا ويعرفوا العالم"[13]، لتكون هذه العلامات حاملة لدلالات ساهمت بشكل كبير في دعم رغبتهم في إقناع(صالح الرصاصة) بالفكرة، لنجد في الترسيمة العاملية شبه تداخل بين المرسل والموضوع، لأن غاية الذات(الربيع/ السعيد) قيمية وهي ضرورة إخراج(صالح الرصاصة) وعائلته من العزلة الموحشة(الريف) إلى عالم أرحب

وأوسع(المدينة)، ليمثل الريف بالنسبة للذات(السعيد) و(الربيع) الجمود والتخلف، وفي هذه الحالة تصبح قيمة مجردة حفَّزت(صالح الرصاصة) كذات قيمة على الانفصال المكاني قصد التغير والتجدد بعد أن كانت معارضته الأولى للفكرة وليست معارضة للذات(الربيع والسعيد) لعلمه المسبق بنواياهم ومقاصدهم، ومعارضته المبدئية لفكرة الرحيل إلى المدينة كانت لأسباب تتعلق بالجانب المادي والروحي، لتأتي معارضة نسبية كونه نفذ الأفعال الطلبية خاصة بعد استعمال صديقيه للفعل الإقناعي الهادف إلى تحقيق موضوع الرغبة، لينصهر هذا الموضوع كليا في الشكل التحييني الذي أرادته الذات (السعيد) و(الربيع) بعد مشاورة(صالح الرصاصة) لزوجته(عرجونة بنت اعمر) التي أعطته الضوء الأخضر في الأخير.

لتوضح الترسيمة الآتية ذلك:

– الذات ←الفرضية ← التحيين ← الغائية

(السعيد والربيع) (الانفصال عن الريف) (استعمال الفعل الإقناعي) (النجاح في تحقيق الموضوع).

ج– ثنائية المساعد– المعارض:

نجد الذات الرئيسية هنا قد تلقت مساندة مباشرة من(عرجونة بنت اعمر) بإسهامها الكبير في تحقيق موضوع الرغبة، وذلك بعد أن استشارها زوجها(صالح الرصاصة) في الموضوع وموافقتها عليه ليكون تفعيلها للمسعى جاء في صورة مساعدة حقيقية للذات ورغبتها، لقول صديقيه مستفسرين على رأي زوجته" بم أشارت بنت اعمر؟.

– وضحك وهو يواصل:

حمدة خير من أحمد، وسكتَ.

وهما يعرفان أنني أستشيرها في كل شيء... "[14].

كما يمكن أن نظم(الحرمان، البؤس، سلبيات القرية...) لخانة المساعد لأنها من العناصر التي دفعت الزوجة إلى الموافقة على المقترح من أجل التخلص من بؤس القرية، إذ مع تعمقنا أكثر في الإلمام بعناصر الدلالة لهذه الملفوظات نجد هذه الصورة نفسها قد تدخل في خانة المساعدة، كونها كانت دعامة للذات خلال استعماله للفعل الإقناعي في

إنجاح المهمة.

أما فيما يخص المعارضة فنجدها خالية، كون الجميع وافق في الأخير على فكرة ترك الريف والانتقال إلى المدينة كحلّ أخير.

ليكون انتقاله إلى المدينة بصفة عامة وإلى حارة الحفرة خاصة مرحلة انتقالية.
أولا باتصاله بسكانها كعائلة(منير) المثقف وجدّته أُمًّا علجية التي يكنُّ لها كل الحب والمودة.
ثانيا بنشوء علاقات صدامية مع(أمحمد أملمد) رئيس البلدية، فنجده يحاول تعرية الحاضر عن طريق الاستذكار والرجوع إلى الماضي لتعريته أولا وهروبا منه ثانيا لتأزم أوضاعه وتــردي أحواله خاصة مع تزايد استفزازات(أمحمد أملمد) له المتكررة كقوله مثلا:
" أعدتُ غلق الزجاج ورفعت صوت البوق حدَّ الإزعاج... خرج(صالح) من مغارته كالشبح وقد اشتد سواده وتلألأت عيناه كأن إسهالا داهمه عاما كاملا... كأنما عرفني فاندفع يفتح الباب ليركب... كان الباب موصدا من الداخل لم أشأ أن أفتحه له وأشرت إليه أن يأتيني من الباب الآخر... وفعلا جاء... كنت أريده أن يبقى واقفا ليحدثني من خلال النافذة"[15]، لتبدأ من هنا مرحلة الاضطراب بالنسبة لذات(صالح الرصاصة)، وسيكون تعاملنا مع البرنامج السردي الذي سندعمه بترسيمة عاملية لاحقا مبني على تحديد الأدوار العاملية وانحرافها، إذ بعد نجاح موضوع الرغبة وانتقال(صالح الرصاصة) وعائلته إلى المدينة بدأت حياته في التغير جذريا مع مُحاولته إنجاح برنامجه السردي رغم وجود معارضين له خاصة(أمحمد أملمد) رئيس البلدية الذي عمل المستحيل لإفشال هذا البرنامج بفرضه برنامجا ضديدا، إذ يبين المقطع السردي السابق نوعية العلاقة الصدامية بينهما، ليعكس محور الرغبة التوتر الموجود مسبقا بين(صالح الرصاصة) وموضوع الرغبة(المدينة)، إذ نجده قد رحل إليها مُكرها ليفرَّ منها مُرغما، وهذا يتجسد جليا في الوحدات السردية الآتية:

- " وأردت أن أقول لا للمدينة... فقلت نعم... قلتها خافتة باهتة"[16].
- " لم أفرح... نعم لم أفرح... أحسسته قبرا... مجرد قبر بارد لا غير"[17].
- " دخولي المدينة كشف لي زيف الواقع... "[18].
- " جريت... جريت... كأنني في ريعان الشباب... أحسست أنني خرجت من المدينة... خرجت من السجن... "[19].

وتأسيسا على هذا نجد سبب نفوره من المدينة اكتشافه لزيفها الممثــل هنا في السلطة الطاغية(أمحمد أملمد)، كما نجد العلاقة التي تربط(صالح الرصاصة) برئيس البلدية(أمحمد أملمد) صدامية منذ البداية لرفضه المطلق الدخول في حوار مع هذا النوع من المسؤولين لمعارضته المطلقة له ولقيمه كونه ذات معارضة تعمل على" خلق العراقيل بتصديها إمَّا لتحقيق الرغبة أو للتواصل مع الموضوع"[20]، حيث نجده يرفض حتى الحوار معه ليعلن بذلك صراعه معه وتمرده على قيمه الدنيئة لأنه ممثل لفئة المجتمع(حارة الحفرة) في حين(أمحمد أملمد) يمثل فئة السلطة القهرية الاستغلالية، وهذا معناه أن كل واحد منهما على طرفي نقيض:

– (صالح الرصاصة)/ مجاهد وابن شهيد(شخصية وطنية)= رمز للبطولة وإعلاء كلمة الحق.

– (أمحمد أملمد)/ عميل ابن خائن(شخصية استغلالية)= رمز للتسلط والاستغلال والتجبر.

فالأول يمثل فئة عبَّرت عن إيمانها بالثورة لتلقى مصيرها في البؤس والشقاء والموت، لقول(منير) واصفا بيت(صالح الرصاصة) الذي انتقل إليه بعد طرده من المشفى ورحيله إلى حارة الحفرة" هذا هو البيت... كان وطيئا... بابه يكاد ينكفئ إلى مستوى الأرض... لا يكاد علو الجدار يتجاوز قامة الرجل الممتد... قرميده القديم عليه ضمادات إسمنتية عديدة"[21].

أمَّا الفئة الثانية تأكل وتنتفخ، فئة عبَّرت عن خيانتها للوطن لتستفيد وتحتكر مع كبار المسؤولين هذا هو(أمحمد أملمد) الذي يقول وكُلُّه عز وفخر" خرجت من الحمام كانت نفسي رائقة وجسمي خفيفا والدنيا بذوق العسل... أولاد الكلب سأشتريكم جميعا بمالي... الكل تحت جبروتي... أنتم وهذا الوطن الذي ضحيتم من أجله... حاولت إدارة الخواتم الذهبية اللَّماعة... لم أستطع... ضاقت هذه الأيام على أصابعي... مرَّرتُ راحة يدي اليمنى فاليسرى على بطني انتفخت أكثر مما يجب... ركبت سيارتي الطيارة... "[22].

ليعكس هذين المسارين الأول والثاني حالة التناقض الكبير بين فئتين مختلفتين هما: الفئة الوطنية/ الفئة الخائنة، كونهما جاءتا مدعمتين بمفعــول الحقيقة التاريخية، لنلاحــظ أن الخطاب البرهاني للمرسل/ المحرك(المجتمع) يشتغل على نحو يكون فيه فهم الوضع

الراهن مربوطا بقراءة الماضي المتعلق بالفئتين:

أ– الماضي المتعلق بصالح الرصاصة: إذ نجده يقول وكله ثقة" أنا هكذا سعيد وهانئ في قريتي مع زوجتي وأولادي، ما بقي لي غير أن أموت هانئا إن شاء الله وأدفن كما أوصى والدي الذي قدَّم روحه في المعركة كي يحميكم... ليس من الممكن أن أنسى وصيته الغالية... 'يا وليدي لا تخن أرضك ولا تخن عهد الرجال'"[23].

ب– الماضي المتعلق بمحمد أملمد: لقوله مهدِّداً وكله حقد" وجدت نفسي أسوق السيارة باتجاه ضاحية المدينة حيث يسكن الشيخ(صالح) عندي معه حساب طويل تجب تصفيته... لن أنسى أبدًا ما فعله بوالدي أثناء الثورة حين اختطفه مع بعض المجاهدين وجاءوا به مكبلا إلى بيته وحاكموه في الليل... اتجهت لأبناء عمومته وقلت مهدِّدًا:

–إن وقع لأبي مكروه لآتينكم بجيوش فرنسا الجرارة... ولأهدمن عليكم أكواخكم القذرة... ورحلت دون أن ينطقوا... ما كادت السماء تتوسط السماء حتى وجدت أبي في الوادي جثة هامدة"[24].

وهذا الملفوظ بالنسبة لفئة بالنسبة لفئة الوطنيين قبل/ بعد الاستقلال جاءت موازينه مختلفة مقارنة مع ملفوظ الفئة الخائنة قبل/ بعد الاستقلال، لتتجسد هنا في المرتبة العليا التي ارتقاها(أمحمد أملمد) ليصل إلى منصب رئيس البلدية يأمر وينهي، ليحدث بذلك اختلالا في موازين القوى أدت في الأخير إلى انقطاع الصلة بينه وبين(صالح الرصاصة) الذي ظل متمسكا برأيه ومبادئه التي تربى عليها، لعلم هذا الأخير أن من خــان وطنه يهــون عليه أي شيء، لنجــد هذا الكلام واضحــا في قــول(صالح الرصاصة) واصفا دناءته" شاهدت(أمحمد أملمد) يتربص بعيدا في سيارته الفارهة وعلامات الرضى تركض على تقاسيم وجهه وقد انهمك في تنقية أسنانه من الطعام... وحده الموت يفرح هذا البليد... وحده الدم النازف يعزف له موَّاله"[25]، فهذه المقطوعة السردية تتضمن داخلها عالمان دلاليان هما: الموت/ المتعة فالدم يرمز إلى الموت، والموت بالنسبة لمحمد أملمد هو ما يحقق له المتعة ليتحول هنا إلى شخصية سَاديَّة تتمتع بآلام الآخرين، ليقوم(صالح الرصاصة) على هذا المنوال بوضع هذا النوع من الفئة طرفا في الصراع لينشأ عن هذا الصراع سياق تحويلي مؤسس علــى ثنائية: المجتمع/ السلطة، إذ يبدأ برنامج التغيير مع(صالح الرصاصة) في شكل مُعلن، ليؤسس نفسه فاعلا ديناميا

له إرادة خالصة في رفض الفساد بكل أنواعه، وتأسيسا على هذا سنحاول تقديم صياغة للوضع السردي على النحو الآتي:

– فاعل الحالة **U** موضوع الجهة.

– صالح الرصاصة **U** الرغبة في إحداث التغيير.

– ت. س[حويل سردي]——◄[ف(صالح الرصاصة) **U** م. ج(الرغبة في إحداث التغيير)] ——◄[ف **U** م. ج].

ليتحول فاعل الحالة(صالح الرصاصة) من حالة الانفصال مع موضوع الجهة إلى حالة الاتصال المؤقت:

– فاعل الحالة **n** موضوع الجهة.

– صالح الرصاصة **n** الرغبة في إحداث التغيير.

الوضع الأول تميز بالانفصال حيث نلاحظ ممارسة(أمحمد أملمد) للسياسة الاستفزازية تجاه(صالح الرصاصة) بصفته يحتل موقعا مهما كمحرك، بهدف إذلاله وإنجاح برنامج الانتقام الذي عاهد نفسه عليه، ليتجلى التحريك(الإيعاز) La manipulation في حُكمه الإيجابي على قدرته السلطوية في إذلال(صالح الرصاصة) أولا ثم القضاء عليه نهائيا حسب مخططه الدنيء، لقوله وكله إصرار على الانتقام" ... وما زال هو غُصَّة في القلب... لابد أن يدفع الثمن... وكيف يدفعه؟ بإزهاق روحه أم بالموت البطيء؟"[26]، ولكي يتحقق غرضه عمد إلى أسلوب المراوغة والحيلة للتمويه على أغراضه الدنيئة ولإعطاء صورة حسنة له أمام(صالح الرصاصة) ومن ثم كسب ثقته ليُفسحَ له الطريق بعدها في تنفيذ مخططه الانتقامي، لقوله" الماضي ماضي يا الشيخ (صالح)... والذي فات مات... يجب أن تفتح صفحة جديدة بيضاء ناصعة لا نكتبها إلاَّ بالذهب الخالص"[27]، إذ يعمل(أمحمد أملمد) هنا جاهدا من أجل إقناع(صالح الرصاصة) بمسعاه الطيب الذي جاء من أجله، لكن هذا الأخير رفض وبشدة السقوط في العملية التمويهية وفي الفخ الذي يحضره غريمه لعدم استساغته للموقف، ونجد ذلك في قوله" نحن لا نعطي قهوتنا لكل من هب ودبَّ فازرع ينبت يا(أمحمد أملمد)"[28].

لتأخذ مع هذا بنية التحريك طابعا صراعيا بدأ برفض(صالح الرصاصة) لأي علاقة يكون(أمحمد أملمد) طرفا فيها، إذ يبدو هنا متمردا على ما آل إليه الوضع

الاجتماعي من تردي وسقوط في بهيمية حاقداً على أولئك الذين جمعوا ثرواتهم بطرق مشبوهة ليستغلوا نفوذهم في منع كلمة الحق من الظهور فنجده يعري الواقع بقوله مخاطبا (أمحمد أملمد)" ولكني شريف... لم أمد يدي لأحد... ولم أجمع شيئا من حرام... وأنا سعيد بذلك... وأدركت أنه يقصدني مباشرة... "[29]، لنصل بعد ذلك إلى الرفض النهائي الذي أقرَّه بعدم ربط أية صلة معه، خاصة عندما صارحه برغبته الزواج من ابنته (الجازية) فكان الرد القاسي عليه بقوله"– أريد أن أخطب ابنتك(الجازية).

– جحظت عيناي دهشا وقلت وأنا أتميز من الغيظ:

نجوم السماء أقرب إليك أيها النحس... ودخلت الدار فصفقت الباب غضبا... وسمعته ينبح كالكلب"[30].

فهذا الرد بالرفض كان نتيجة قناعة راسخة في ذهن(صالح الرصاصة) ومُحصِّلة لتقويم مبني على خبرة مسبقة لممارسات(أمحمد أملمد) الاستغلالية، لقوله وهل تركت في الدفتر ورقة واحدة بيضاء بريئة؟"[31]، لتعرف بذلك العلاقة التي تربط(صالح الرصاصة)=(المجتمع) بـــ(محمد أملمد)=(السلطة القهرية) تحولات كان لها أثر عميق في تأطير الحدث السردي والنزوع به نحو التوتر التصاعدي خاصة بعد فشل(صالح الرصاصة) في مشروع التغيير الذي تبناه وحاول تحقيقه، بسبب ممارسات(أمحمد أملمد) السلبية التي أثَّرت عليه كثيرا وكرَّست الهوة بين الفئتين، كون هذا الأخير وقف كذات معارضة على" خلق عراقيل بمعارضته، سواء لتحقيق الرغبة أو الاتصال بالموضوع"[32]، ليدخل بذلك عالم الغموض واللاتواصل مع محيطه ويقرر الهروب وحده إلى الريف تاركا عائلته وراءه، ليكون هروبه تعبير عن اغترابه وفشله في التواصل مع محيط متعفن، ليختار القطيعة كحلٍّ ارتضاه لنفسه يقول(منير) واصفا الوضع:" أمَّا أبي (صالح) فقد رحل إلى القرية... عاد إليها... آثر أن يعيش في بيته القديم"[33].

لنلاحظ هنا أن ذات(صالح الرصاصة) في علاقة فصلية بالمدينة لتفقد وظيفتها العاملية بمجرد فشل مشروعها، إذ نلاحظ عدم تحقق موضوع الرغبة في التغيير أدى إلى فشله واستسلامه للأمر الواقع ليكون تعبيره عن الرفض جاء في صورة هروب من المدينة واستقرار في الريف، لتتحقق الرغبة في التغيير بعد بلوغ الصياغة النهائية للمخططات السردية على يد سكان حارة الحفرة كعامل جماعي ممثل في كل من:(منير)/ (ذياب)/ (الجازية)/ (عبلة الحلوة)... لقول الراوي واصفا الموقف" على مرمى

حجر تقفين مهرة جامحة... تلتصق الشقراء به... يعدو(منير)... يسبقه(ذياب)... تشحذين القلب... تشحذين الخنجر... تدفعينه نحو القلب... تغرسينه فيه... يتهاوى نحوك جثة هامدة..."[34] لتكون بذلك نهاية الاستبداد الممثل هنا في(أمحمد أملمد)=(رمز السلطة الاستغلالية) على يد سكان حارة الحفرة مجتمعين، وانطلاقا من هذا سنتعامل هنا مع الحالة البدئية للبرنامج السردي الذي تبناه(صالح الرصاصة) كفاعل منفذ من أجل التغيير بالترسيمة الآتية:

– **الفرضية** ←——— **التحيين** ←——————— **الغائية**

– محاولة التغيير بإرساء قيم الحق. –الاعتماد على أهليته في التنفيذ. ∅

فبعد فشل(صالح الرصاصة) في تحقيق رغبته حدثت عملية تحويل بانتقال الدور لسكان حارة الحفرة من أجل القضاء على الفساد الممثل هنا في شخصية(أمحمد أملمد)، لتتشابك الأدوار العاملية ويحصل في الأخير الإنجاز بالنسبة للذوات التي مثّلت فئة المجتمع، لامتلاكها الأدوات اللازمة التي مكنتهم من تحقيقه، بالقضاء على منبع الفساد (أمحمد أملمد)، لتتحول حارة الحفرة إلى حارة الربوة وليحيا سكانها حياتهم الطبيعية بعيدا عن الاضطراب.

وهنا يمكننا بنينة الترسيمة النهائية كالآتي:

– **الفرضية** ←——— **التحيين** ←——— **الغائية**

– محاولة التغيير وإرساء قيم الحق. – الاعتماد على أهلية الرغبة في إحداث التغيير. +

إذ تتجلى طريقة الاتصال بموضوع القيمة(القضاء على الفساد وإحلال قيم الحق) بعد فشل(صالح الرصاصة) في تحقيقه وانسحابه من المشروع بالانتقال من مرحلة الفرضية إلى التحيين، ليقرر سكان حارة الحفرة ضرورة التفكير في طريقة تمكنهم من تحيين مشترك لموضوع الرغبة، ليصلوا إلى نتيجة مفادها ضرورة التفكير في طريقة تمكنهم من تحيين مشترك لموضوع الرغبة، ليكون القرار ضـــرورة القضاء على(أمحمد أملمد) بقتله كحـــلٍّ أخير ووحيد يمكنهم من الخروج من دائرة التهميش، لتنتهي المواجهة بإشراق حارة الربوة بعد زوال أسبـــاب التهميش، لقول الراوي" وحين أشرقـــت شمس الصباح كان الجميع يشاركون في عيد حارة الربوة... "[35].

ليكون منطق النصر قد أدى إلى تحويل سردي قلب مضامين النص والذي يتجسد كالآتي:

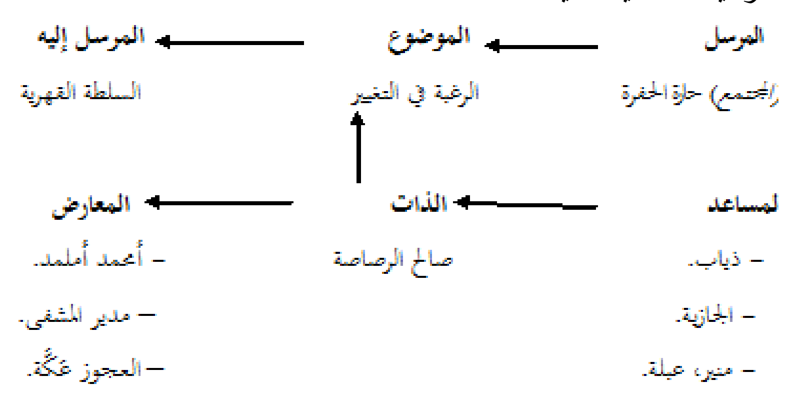
– قبل	**مضمون معكوس**	**سيطرة**	**خيانة**
– بعد	**مضمون مفترض**	**حرمان**	**استفادة**

لتتجسد هذه الوضعية من خلال حالتين:

– **قبــل:** سيطرة(أمحمد أملمد) على زمام الأمور وحرمان(صالح الرصاصة) من أبسط الحقوق(مضمون معكوس).

– **بعــد:** سيطرة سكان حارة الحفرة(فاعل جماعي) على زمام الأمور بعد القضاء على الفساد(أمحمد أملمد)، لتكون بعد ذلك الاستفادة لكامل سكان الحارة.

لتقودنا المعاينـــة عن كثب إلى بنينة هذه المقطوعة الكبرى اعتمادا على الترسيمة العاملية الآتية:



لتُبرز هذه الترسيمة كيفية انتظام الفواعل من خلال تموقعها لتحدث بعض الانزلاقات العاملية لتُحوّل الذوات من خانة لأخرى، كانفصال(صالح الرصاصة) عن مجال الحدث بفراره إلى الريف واتصاله كل من(الجازية)/ (ذياب)/ (منير)/ (عبلة الحلوة) بمشروع التغيير كمساعدين وفواعل منفذة ليكملوا انجاز ما عجزت عنه ذات (صالح الرصاصة) في الأخير.

أ– ثنائية المرسل– المرسل إليه:

ما يشد الانتباه في هذه الترسيمة ثنائية المرسل/ المرسل إليه، حيث جاءت حارة الحفرة كحافز محرك وجَّه حركة الذات(صالح الرصاصة) نحو ضرورة التغيير والقضاء

على الفساد المجســد في(أمحمد أملمد) فنجد قول(الجازية) قد حفَّزته حارة الحفرة بضرورة اتخاذ القرار الصائب، ليكون ردُّها كالآتي:" انتفضي حارة الحفرة...

– انظريني أُطَهِّرَكِ من الرجس... الأفيون..."[36].

لتكون حارة الحفرة حافزا وسببا في جعل(الجازية) تمتلك القدرة في تحويل العلاقة الانفصالية إلى علاقة اتصالية مع موضوع الرغبة لحيازتها عنصرين أساسيين هما: وجوب الفعل/ الرغبة في الفعل لتلجأ في الأخير إلى تحرير حارة الحفرة من قبضة (أمحمد أملمد)، لتقول" ها الخنجر يلمع في عيني... أشدُّه بقوة لابد أن أغرزه إلى آخره... حتى المقبض... حتى مرفقي... لابد أن أراه يتقيأ دما... كجثة والده العفنة حين ذبحه الكبار... لابد أن أذبحه... "[37].

إذن فحارة الحفرة كمرسل تمثل: الحرمان/ البؤس/ الفقر/ التهميش، وهذه العوامــل دفعت(صالح الرصاصة) ومساعديه إلى ضرورة إحداث التغيير نحو الأفضل للتخلص من مسببات التهميش والحرمان في الحارة التي أصبحت تتدثر بأهلها البسطاء، لنجد الإيعاز قد جاء من جهة المرســل(حارة الحفرة).

أما فيما يخص خانة المرسل إليه فنجد السلطة هي المتلقي الأول بحكم أن التحريك والمواجهة التي قادها سكان حارة الحفرة كانت تجاه سياسة(أمحمد أملمد) الاستغلالية التهميشية التي أثَّرت سلبا على رعيته خاصة سكان الحارة البسطاء، إذن فهو كرئيس للبلدية يمثل السلطة، وبممارساته الانتقامية يمثل السلطة القهرية، وبسبب هذه السياسة قاد السكان حركة مضادة تميزت بداية بالاضطراب لتنتهي بالتوازن، من هنا دخلت السلطة كطرف في الصراع لتصبح ذات صبغة قيمية، لأن عملية المواجهة ضد (أمحمد أملمد) كان هدفها توجيه رسالة للسلطة القهرية بضرورة الاعتدال أو المواجهة.

ب– ثنائية الذات– الموضوع:

يوجد في خانة الذات ممثل واحد يؤدي هذا الدور، كون الشخصيات الأخرى التي اشتركت معه في تحقيق عنصر الرغبة تدخل ضمن خانة المساعدين، إذن فذات (صالح الرصاصة) تظهر منذ البداية كذات مهيمنة على مسار الحدث كفاعل رئيسي سخر نفسه لخدمة القيم العادلة ومبادئ الحق والوطنية وذلك في سعيه وراء توجيه سهم الرغبة نحو الموضوع/ التحيين، رغم تكالب العديد من الفواعل ضده بردعه وإعاقته،

ونجد هذا في قوله متحديا السلطة" خائفون مني؟ تريدون إبعادي عن أسيادكم...؟ حياتكم كلها كذب على الشعب... وعلى الله... وعلى نفوسكم... وعلى التاريخ... وحتى على أسيادكم... خافوا الله... واحد تزرعون له الورد في الشتاء... وملايين تزرعون لهم السم والشوك طول العام... سينتقم الله منكم... "[38].

فموضوع الذات هنا يحتوي على عدَّة مــوضوعات جزئية تشكل مجتمعة الموضوع المركزي(الرغبة في التغيير).

كما نلاحظ جيدا أن خانة الموضوع اتسعت شيئا فشيئا ليعتبر في الأخير الإيعاز الوحيد لها هو الرغبة في التغيير من خلال تعرية الحاضر بالرجوع إلى الماضي بكشف الحقائق وتعريتها، إذ جاءت بعض الملفوظات السردية في قالب وصفي دال على حركة أسهمت كثيرا في النمو الحدثي، كقول(أمحمد أملمد) مستذكرا الماضي:" لن أنسى أبدا ما فعله بوالدي أثناء الثورة حين اختطفه مع بعض المجاهدين وجاءوا به مكبلا إلى بيته وحاكموه في الليل... وعلمت بالأمر فقصدتهم صباحا ووجدتهم قد رحلوا به... اتجهت لأبناء عمومته وقلت مهددا:

– إن وقع لأبي مكروه لآتينكم بجيوش فرنسا الجرارة"[39]، فهـــذا القول أدى لنشوء الصراع بين فئتين: المجتمع/ السلطة، ليكون موضوع القيمة الجزئي الذي أراد(صالح الرصاصة) تحقيقه هو ضرورة الانفصال وعدم التعامل مع(أمحمد أملمد) لأسباب تاريخية فالأول وطني وابن شهيد في حين الثاني عميل مستغل وابن حركي(خائن)، إذن فهو يرى فيه عنصر قبح لارتباطه الأبدي بالأصل والماضي الأسود الذي لا يحبه، إضافة إلى الموضوع الثاني الذي اشترك فيه مع كامل سكان حارة الحفرة وهو ضرورة التغيير بالقضاء على الفساد الذي عشَّشَ فيهم والممثل في(أمحمد أملمد)، ليحققوا بذلك الإنجاز بإشراق حارة الربوة.

ج– ثنائية المساعد– المعارض:

نجد هنا في خانة المعارض تبني(أمحمد أملمد) لبرنامج سردي ضديد هدفــه القضـــاء علـــى(صالح الرصاصة) وسكان حارة الحفرة ليُسهم بذلك في عرقلة الذات، كما نجد مدير المشفى الذي سعى جاهدا لإفشال رغبة(صالح) بطرده من العمل أولا ثم من بيته ثانيا، إضافة للعجوز(عكَّة) التي سخَّرها(أمحمد أملمد) لخدمة أغراضه وشراء ذمم الناس، ليكون هنا عنصر المعارضة ثري من حيث عدد الممثلين الذين يقومون

بدور عاملي واحد وهو منع(صالح الرصاصة) من تحقيق مشروعه ويتجسد ذلك في حصول العديد من الحالات الصدامية بداية مع مدير المشفى الذي وقف معارضا لـــ (صالح الرصاصة)، كقوله معاتبا:" سبحان الله حارس يراقب سيده... يراقب مسؤوله... اسمع يا (صالح) أنت مهمتك هنا حارس ولست في المستوى كي تعلمني درسا في الوطنية... أنت إنسان مشوش فوضوي ومخرب... "[40]، ليتضمن هذا التصريح إدانة متضمنة لمعارضة شديدة لاقاهـــا(صالح الرصاصة) من قبل مديره في العمل لا لشيء سوى أنه تفانى في عمله وأتقنه، ليُحْدِثَ هذا التصادم في الرغبات شرخا في عملية الاتصال والتي تحولت بدورها إلى انفصال، ليُلحق هذا الانفصال أضرارا جسيمة بـــ (صالح الرصاصة) ويُدخل المدير في علاقة تضاد معه نتيجة الوضع الذي آل إليه.

كما نجد شخصية(أمحمد أملمد) رئيس البلدية الذي دخل منذ البدايـــة في صراع مع ذات(صالح الرصاصة) لأسباب تاريخية متعلقة بماضي كليهما، ليحاول جاهدا إعاقـــة أي مسعى يقوم به كقوله" ... رحت أضرب على المقود وعلى الباب وعلى صدري... لكم الويل مني أيها الكلاب... حقدي لا تمحوه إلاَّ دماؤكم"[41]، فهذا الصراع مرتبط بالانتقام من جهة (صالح الرصاصة) وبالسلطة والاستغلال من جهة حارة الحفرة لطمعه الشديد في الاستحواذ عليها وطرد أهلها الذين وقفوا في وجهه، ليكون ظهور هذه الشخصية الضدية في ساحة الأحداث قد قلبت حالة التوازن في حارة الحفرة مسببة الاضطراب.

أما فيما يخص خانة المساعد فنجدها متعددة بداية بـــ(الجازية) رمز النقاء والطهر التي وقفت إلى جانب والدها(صالح الرصاصة) مع كلمة الحق، فموقفها هنا حقق مساندة حقيقية لإنجاح مشروع والدها وتحقيق رغبته كفاعلة منفذة مع(ذياب) و(منير) و(عبلة الحلوة) وباقي سكان حارة الحفرة وذلك في قول الراوي واصفا لحظة القضاء على الفساد الممثل في(أمحمد أملمد) على يد(الجازية):" حارة الحفرة تنتظرك أيتها الفحلة... يا سلالة الفحول... اقتليه... اغسلي العار... لا يغسل العار إلاَّ الدماء... "[42]، ليكون قرار سكان حارة الحفـــرة وعلـــى رأسهم(صالح الرصاصة) إعـــلان المواجهة، ليندمج ضمن برنامجه السردي ومشروعه التغييري عدة فـــواعل مساعدة:(الجازية)/ (ذياب)/ (منير)/ (عبلة الحلوة) وليتحقق بذلك الإنجاز.

ومن خلال ضبطنا لأهم المحاور في هذه الرواية وانطلاقا مما سبق يمكننا

ملاحظة أن البنية السردية عند مقاربتها وفق الأنموذج العاملي بينت لنا منذ البداية وفي جوانب عدة مواجهة بين طرفين متضادين هما المجتمع الممثل في(صالح الرصاصة)، (الجازية)،(ذياب)،(منير)... والسلطة الممثلة في مدير المشفى ورئيس البلدية(أمحمد أملمد) ومحافظ الشرطة... لتقودنا المقاربة العاملية إلى تقريب وتوضيح طبيعة موضوع القيمة Objet de valeur الذي تتصارع من أجله هذه الذوات رغبة في الوصول إلى الموضوع الذي يملكه الفاعل ويريد الفاعل المضاد إبطاله.

الهوامش:

1- عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، دار هومه للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2004، ط2، ص 26.

2- المصدر نفسه، ص 25.

3- المصدر نفسه، ص 24.

4- المصدر نفسه، ص 29.

5- المصدر نفسه، ص 29.

6- المصدر نفسه، ص 37.

7- المصدر نفسه، ص 43.

8- المصدر نفسه، ص 35.

9- المصدر نفسه، ص 37.

10- سعيد بنكراد: مدخل إلى السيميائيات السردية، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2003، ص 55.

11- عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص 54.

12- المصدر نفسه، ص 70.

13- المصدر نفسه، ص 26.

14- المصدر نفسه، ص 29.

15- المصدر نفسه، ص 94.

16- المصدر نفسه، ص 29.

17- المصدر نفسه، ص 34.

18- المصدر نفسه، ص 38.

19- المصدر نفسه، ص 46.
20- جوزيف كورتيس: مدخل إلى السيميائية السردية والخطابية، تر: جمال حضري، منشورات الاختلاف، الجزائر، 2007، ص 111.
21- عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص 69.
22- المصدر نفسه، ص ص 90- 91.
23- المصدر نفسه، ص 25.
24- المصدر نفسه، ص 93.
25- المصدر نفسه، ص 231.
26- المصدر نفسه، ص 93.
27- المصدر نفسه، ص 95.
28- المصدر نفسه، ص 95.
29- المصدر نفسه، ص 96.
30- المصدر نفسه، ص 97.
31- المصدر نفسه، ص 96.
32- عبد العالي بوطيب: مستويات دراسة النص الروائي، مطبعة الأمنية، الرباط، المغرب، 1999، ص 66.
33- عز الدين جلاوجي: راس المحنة 1+1=0، مصدر سبق ذكره، ص 204.
34- المصدر نفسه، ص 263.
35- المصدر نفسه، ص 264.
36- المصدر نفسه، ص 260.
37- المصدر نفسه، ص 260.
38- المصدر نفسه، ص 53.
39- المصدر نفسه، ص 93.
40- المصدر نفسه، ص 37.
41- المصدر نفسه، ص 94.